وادي الفريكة

او عود الى الطبيعة وهو شعر في النثر

وادي الفريكة مهابتهُ أكثر من جماله. عميق ملتوٍ يحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليهِ في نهر الكلب . صغير ولكنهُ كثير الزوايا والخبايا يجمع بين الدلب الذي لا يعيش الاَّ جار الماء والصنوبر الذي يكتفي بمشاهدة البحر من اعالي الجبال . تثمر الطبيعة في الشتاء زهر الدفلى تحت قدميهِ وتكلل رأسهُ في الربيع وفي الصيف بازهار الزَّان . ومع هذا الجلال والدلال تراهُ حاملاً على منكبيهِ كثيرًا من الاطواد التي تخضع صاغرة تحت قدمي سنين . على منكبي وادي الفريكة تلتقي الاطواد . هنالك تعانق جبال القاطع جبال كسروان ومن اعطافها تتدفق المياه التي تجري في نهر الكلب . هنالك تمتد الاعناق وتنحني الرؤوس وتتلاثم الثغور . وفي الصباح قبل ان يغيب القمر وتشرق الشمس تلألأ فوقها الاهة الحب : تشرق الزهرة من وراء جبل صنين وترسل اشعتها الباهرة فوق الآكام التي يعانق بعضها بعضاً عناقاً ابديًّا على منكبي وادي الفريكة

في هذا الوادي من الصخور الشامخة والوهاد العميقة والكهوف المظلمة ما يستوقف الابصار فهو يقول للفلاح : تعالَ بفأسك ومنجلك . ويقول لمحب الطبيعة : تعالَ بافكارك وتصوراتك كما تقول الرياض لمحب السرور : تعالَ بالعود والدنّ

في صباح يوم من الايام التي تقف حائرة بين الخريف والشتاء لبيت دعوة الوادي . خرجت بعطف مشمع واخذت اقفز عن الربى وادب من تحت الصخور حتى وصلت الى قلب الغاب . نزلت لانتقد الوادي بعد ان اغتسل بسحابة الخريف . هبطت على عادتي لا ترويحًا للنفس بل طلبًا للالهام . تصدت الوادي كما يقصدهُ الفلاح وفأسي ومنجلي يختلفان عن فأسهِ ومنجلهِ واحدانا ونحن عائدان نختلف كثيرًا . لكن حطب الغاب يفيد في هذه الايام اكثر من حطب الخيال والفلاَّح هو الفيلسوف الحقيقي . انحدرت الى الوادي ووقفت على صخر يشرف على النهر وتأملت فصل المواصف والانواء في الليلة البارحة — ليلة دخل اله فصل الشتاء بموكبهِ الطبيعة . كيف لا ومياه النهر حمراء كالدم . . . وقفت هنالك مبتهجًا فأحسست بان روحي انفصلت عن جسمي وطارت فوق الاشجار البليلة وفوق الصخور الشهباء في الصيف السوداء بعد المطر. طارت وطار معها ما تراكم على رأسي وقلبي من الافكار والخيالات والاماني . طارت بسرعة صامتة كما يطير السنونو في هذا الفصل . شعرت بان روح الوادي تجسدت فيَّ

وروحي تجدت في الوادي فانا اذن والوادي سواء : في نفسي ما فيهِ من الظلال والكهوف. في نفسي ما فيهِ من الصخور الشاهقة والمنحدرات الهائلة والسواقي الفائضة والانهر الجارية . في نفسي ما فيهِ من الطيور والجنادب ومن الهوام والذئاب ايضاً

صعدت قليلاً وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست هواء الحراج المنعش فكاد يكون لنفسي صدًى في حفيف الاوراق . في ظل هذه السكينة يكاد المرء يسمع خفقان قلبهِ . سمعت صوت رفرفة العصافير فالتفت الى جهة الصوت واذا بسرب كبير من السنونو فرَّ امامي ففكرت في نفسي قائلاً : لو كان للطير ان تقرأ الافكار لما كان هذا السرب يفر الآن من وجهي بل كان يجيئني مغرداً فاقبلة ويتبلني ثم يسير كلٌّ منا في سبيلهِ . ولكن اخواني البشر لم يعوّدوا الطير مثل هذا . والسنونو لم يقرأ شيئاً حتى اليوم مما اكتبهُ . وهل يلام على ذلك والانسان نفسهُ لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليهِ الانسان

السكينة بعد العواصف أتأملتها في زمانك . هي عندي نوع من الراحة الابدية . السكينة في الوادي في هذا الفصل تكاد تكون غير عالمية . فما انعشها للنفس وما اجمل وقعها على الاذن والقلب ! لو جاز ان نقول ان للسكينة الحاناً لقلت انها اشجى في سمعي وابدع من الحان امهر الموسيقيين . وما معنى الالحان التي لا تسبقها وتتلوها السكينة . انها عندي كلا شيء . بل هي ضجيج مزعج ممل

واما العبير المنتشر في الغابات بعد الامطار وخصوصاً بعد السحابة الاولى من فصل الشتاء فيعبر الكباوي والنباتي والعطّار فما اشذاهُ واطيبهُ . ايفاخرني الخليع بروائح الحشيش والافيون والمسك والعنبر فوالله ان روائح الغاب والوادي بعد الامطار لاطيب منها شذًى واعظم في النفس وقعاً

مرَّ عليَّ ساعة من الزمن وانا اتنشق هذه الروائح وافكر في الحشاشين والروحيين واليوذبين الذين يسكرهم الافيون فيرتقصون باحلامهم الى ما فوق الطبيعة او يغدرون الى ما تحتها فنهضت وقد تجدّرت اعصابي من ارج الاشجار البليلة وافيون الارض الندية . ونظرت بعين البصيرة الى الافق من خلال الاغصان فتوسمت في الغيوم المتراكمة فيهِ خيراً وقلت في نفسي : الى البيت الى المبيت ! فها قد اخبأت في عشاشها الطيور وعادت الى اوكارها الحشرات وعدت نحو حظائرها المواشي . قد انهزمت السكينة امام الرياح وهبَّت الاوراق الصفراء البالية من تحت الادواح لتختبئ في الغياض والادغال . وانت — فما الذي يبقيك هنا . عد الى عشك قبل ان تحاصرك الرياح . عد الى عشك قبل ان تلَّ عليك الغيوم صوارمها وتطلق

مدافعها — قبل ان ترمل عليك السحب شآبيبها . فقبلت نصيحة نفسي ونظرت حولي باحثاً فرأيت بالقرب من شجرة صنوبر كبيرة صخراً قد نقرت فيه الدهر والاعاصير مغارة صغيرة فتقدمت منها وديت تحت الصخر دبياً وتأملت بعد ذلك حكمة الطبيعة ورحمة العواصف والرياح . ايها القارئ ان الطبيعة لا تظلم بنيها مهما اشتد غضبها ومهما تعاتمت في مناحيها

اما اولئك الذين يخافون الامطار ويخشون الاعاصير فيتفرجون عليها من وراء الزجاج فذرهم في نعيمهم يمرحون . اولئك فقراء الروح لا يدركون الغرض الجوهري من الحياة الدنيوية ولا يعرفون ما غرب وخفي فيها من اللذات الروحية والجسدية . كم من مرة سمعت صوت النفس يناجيني قائلاً : امشِ تحت المطر الهاطل وعرّض خديك لسهام الغيوم بل لقبلاتها فهي تسيل شوقاً اليك واذا وجدت نفسك في الغاب او في الوادي في مثل هذه الآونة فلا تخف على جلدك من الدوبان ولا تهرول الى البيت كالجبان . بل قل لنفسك مكانك تحمدي او تستريحي ! افرح بكل مظهر من مظاهر الطبيعة واعتقد ان كان عندك ذرة من العلم . عليك بشجرة وارفة الظلال فاشغل فكرك او قلبك بشيء تراه حولك ولا تكن من الخاسرين . هذه الفرص ثمينة وهي اندر من الغراب الاعصم . ولعلك لا توفق ثانية ان تقترب من الطبيعة في شدة غضبها — في ساعة اضطرابها فاقترب منها الآن ! تعلم منها الثبات والاخلاص واعتقد القوة والجلال

اذا كنت في سفينة تتقاذفها الرياح من كل جانب واوشكت ان تبتلعها الامواج انضم وقتك بالعويل والنحيب صارفاً النظر عما تتمثل حواليك من جمال الطبيعة وهولها وجلالها . لا اقول لك لا تصلِّ الى الله لينجيك من الغرق في مثل تلك الساعة ولكنني اقول اشكره تعالى اولاً وآخراً على انهُ جعلك من شاهدوا هذا المشهد العظيم ووقفوا هذا الموقف الرهيب الا تظن مشاهدة البحر ساعة هيجانه تساوي شيئاً . لنفرض انك غصت في الوادي تحت الغيث الهاطل اوغصت في البحر تحت الموج المتراكم ايهما انقص من نفسي الازلية شيء . فعلام الخوف والجبن ؟ ايخشى الانسان ربهُ ؟ ايحاذر ابن الطبيعة امهُ ؟ اتوجس النفس الازلية خيفة من شيء زائل

شذبت نصائح القوم ووضعت ما بقي منها في جيبي وسرت مع نفسي سيراً بطيئاً بعيداً عن طرف الوادي — بعيداً عن تلك الخطوط الصفراء التي يراها التائه عن بعد فيقصدها مستبشراً و يلازمها مطمئناً . سرت بين شرايين الوادي وعروقه طالباً في القلب مركزاً جميلاً تزينهُ ثلاث من ادواج الصنوبر الشامخة وقد تساوت كلها حجماً وقداً وجمالاً . رأيتها واقفة هناك شبه عرائس خرجن من خدورهن ليدعوني اليهن . وهل تظنني خاطرت بنفسي اذ

ليست الدعوة ؟ لا وحياتك ايها القارئ ، فقد خاطرت بشيء من اللحم والدم والعظام التي تقيد النفس . اليس من المحمدة ان يعطي المرء للنفس مداها مهما كلفهُ ذلك ؟ اوجه هذا السؤال الى الشعراء . لا لا اذكر سوى اللذات الروحية حينما اكون بالقرب من الطبيعة ومتى عدت الى المدينة فهنالك لذات جسدية تنتظرني . هنالك سرور يشبع النفس كما يشبع سروري الآن سرور الجسد . واما الكوارث والحوادث التي يخافها الناس ويبالغون في التهويل بها فتى جاءت رأيتني متأهباً للسفر

الطريق التي جزتها الى الصنوبر في الوادي هي الطريق الى الحقيقة في العالم . وعلى من يحب الاقتراب من الصنوبر وتتوق نفسهُ الى اشجاره وارضهِ المفروشة بابره ان يخاطر بكثير من الراحة التي الفها . عليهِ ان يخاطر بحياتهِ — اي بلحمهِ ودمهِ — عليهِ ان يمشي بين الوسيج والادغال وعلى الشوك والبلان بين الحجارة والرمم والقيصوم وفوق الصخور المغطاة بالطحلب الناعم في تقوبها الغار والعثنار . عليهِ ان يقبل شوك القرقفان ويشم رائحة الطيور وقد يقع تارة من صخر املس ويزلق طوراً على الارض المفروشة بورق الاشجار البالي . وبينما هو سائر يسمع الحقيقة تخاطبهُ قائلة : انا الصنوبر ايها الشاب الطلق المحيا الرائع الوجه الرقيق العواطف الراسخ في علم السلوك المواظب على متن الادب والمسامرة . فان كنت تريد الاقتراب مني — ان كنت تحب الجلوس تحت جرانحي الخضراء المبللة بندى الحب فعليك ان تترك وراءك نعومة المجالس وبهاء الترف ورفاهة العيش . عليك ان تدوس شوك الخرافة وتمشي بين عوسج التقليد وتقطع اودية الاوهام وتعبر مواقي الحب الكاذب وتتوقل سفح الصخور الشاهقة وتسقط تارة في مليق الرؤساء وطوراً في ادغال الحكام واحافير الشرائع . واذا حللت بعد كل ذلك فصعّد في الصخور المعترة بذاتها المنفردة بعظمتها القائمة على شفير الهاوية من غير ان تشعر بشيء من الخوف والرعب او ان يخامرك الريب بنفسك . ومتى وصلت اليَّ تقيم في ظلي سعيداً قريباً من الحياة بعيداً عنها في آن واحد . وتصبح مثل قمة جبل الشيخ لا يملك فيك لاحد من الناس . تصبح اذ ذاك ملكاً مشاعاً للجميع

تبارك من عاش في ظل الحقيقة . تبارك من ملك على نفسهِ

حاصرني المطر في كهفي الصغير ساعة من الزمن فأخذت اتأمل اثناء ذلك ما كان داخلهُ من آثار الخلائق التي سكنتهُ قبلي . فرأيت ان الحيَّة كانت تدخلهُ لتغير فيهِ ثوبها . والثعلب ليأكل دجاجتهُ . والضبع لتفرش فيهِ مائدتها . كيف لا وهذا ثوب الحيَّة البالي وحنا بعض ريش الدجاجة المسكينة وهناك عظم من عظام الثعلب . وفي السقف والزوايا انسجة العنكبوت

وفيها عشيرة من البعوض ان هذه البعوضة الرائدة الآن في هذه الخيام النحيفة آمن على نفسها من قيصر الروس في قصره . ولقد يستطيع حراز الصخور ان يفيدني شيئاً من هذا الباب لو شاء ربك . لقد يستطيع الخشار النامي على باب المغارة الباسط جناحهُ المزركش فوق عرمة من الورق البالي ان يقصَّ عليَّ قصة غريبة عجيبة . فكم من حادث حدث في جوف هذا الكهف لو كان لجدرانهِ ان تنطق وتتكلم !

آهاً على رفيق يشاطرني هذا المأوى الصغير المعتم البارد الجميل ! لا انكر ان العزلة جميلة ولكن لا يتم جمالها الاَّ برفيق نقول لهُ من وقت الى آخر ان العزلة جميلة فقد ثالث نفسي وانا بالقرب من الطبيعة الى نفس بشريَّة أخرى تريني بما فيها من القوة والضعف ما خفي من قوتي وضعفي تأملت وانا في هذه الكهف ما في الطبيعة من القوى الكامنة ومن الهول الراقد تحت ستار السكينة والجمال . فجرني الفكر الى الهيئة الاجتماعية الحاضرة الواقفة على شفر هاوية لم يسبق لها مثيل في التاريخ . جرني الفكر الى ستار الكذب والتصنُّع والاحتيال الذي يسدلهُ ذوو الغايات النفسية على الحقيقة — الى القوى الكامنة في الشعوب المدوسة — الى الهول الراقد تحت ملاءة من الخوف والخمول — الى الخير الكامن في الافراد الغيورين على الحقيقة الجريئين على النبذ عنها

مهما اشتد الاضطهاد على ذوي الافكار فهم لا يحرمون من كوخ يلتجئون اليهِ . تضربنا الطبيعة باليسرى وتعيننا باليمنى . تمدُّ لنا المغاور لنلتجئ اليها حينما يشتد غضبها الاعمى . واذا حملقت فينا الهيئة الاجتماعية وكشرت عن نابها في زوايا الارض واطرافها نفوس حرة سامية تعشنا بطيب شذاها وتجدد فينا حرارة محبتها القوة والنشاط

وبعد ان وضعت حرب الربيع اوزارها صحت السماء قليلاً فظهر شيءٌ من نور الشمس من خلال الغيوم والاغصان وحوَّل نقط الماء المتجمعة على الاوراق الى شذرات من الفضة وحبات من اللؤلؤ . واخذت العصافير تطير من غصن الى غصن ومن صخر الى صخر ساكتة خائفة وهكذا تفعل بعد الامطار فهل هي تشعر مع الشاعر بلذة التأمل الفسيح توحيهِ السكينة ؟ أتفعل الآن دور الفيلسوف بعد ان مثلت دور المنشد المطرب ؟

في مثل هذه الساعة — ساعة السكينة والمدو — لا تتوق النفس المبتهجة الى الشمس وتورها ولا تشتاق الى بهائها وحرارتها . في مثل هذا الوقت من السنة يلذ لي الغاب . ويبعدني الوادي عن الاوراق والكتب . يلذ لي الغاب وما فيهِ من السلوى والالهام والراحة تلذ لي ظلمتهُ واظلالهُ . سكينتهُ وصخورهُ واشجارهُ وادغالهُ . اشواكهُ وازهارهُ . نعم ان

صوت الغيث الهاطل على الاشجار جميل فهو يضرب على اغصانها واوراقها فيخرج منها الحانًا مطربة مدهشة — ولكن السكينة التي تتلو العواصف اجمل في اذن النفس واطرب

صوت الاوراق الصفراء التي تقع متناثرة الى الارض من ثقل ما عليها من الماء . او صوت نقطة ماء تقع من ورقة خضراء حية على ورقة يابسة ميتة . او صوت فأس الحطاب بين اشجار الغض والسنديان . او اصوات الاولاد الذين يؤمون الوادي والغابات طالبين الحلازين هذا كل ما تسمعهُ بعد العواصف والرياح . وهو جميل لانهُ قليل في كثير

عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب اذ عوى وصوّت انسان فكدتُ اطيرُ

صحيح ما يقال من ان الرياح والاعاصير تضر بمصالح الناس ولكن أمين اجل الانسان ومصالحهِ الزمنية خلق الله كل شيء . هكذا يقال في التعاليم الدينية . ولكن الطبيعة تقول غير هذا القول . ويظهر لي ان الاعاصير تعوض اضعافًا على الانسان فالذي تأخذهُ من ملكهِ الخاص تعيدهُ الى ملك الطبيعة والخسارة لا تكون الاَّ نسبية . وهذا ظاهر لكل الذين وصلوا بترقيهم الروحي العقلي الى درجة يتم فيها امتزاج الروح البشرية بروح الطبيعة الشاملة . وهؤلاء القلائل لا يفقدون شيئًا ازليًّا ولا يكسبون شيئًا زائلاً . لان الطبيعة بما فيها هي ابدًا لهم ولها

السير في شوارع المدن الكبيرة يذكر الانسان بالانسان . واما السير في الوادي فيذكر السائر بالخالق العظيم . الاول يدعو الى العمل والثاني الى التفكر والتأمل . في الاول بعض اللذة التي يتلوها الاعياء والتنوط وفي الثاني نوع من اللذة الذي يتبعهُ النشاط وحسن الآمال . يمشي المتنزه في شارع من شوارع باريز او نيويورك فيدهشهُ ازدحام الناس وتنقبض نفسهُ من الضجيج ويتبلبل فكرهُ مما يراهُ وراء زجاج النوافذ الكبيرة من مصنوعات الانسان ومن التحف والعاديات . ويمشي ابن الطبيعة في الغابة بين الادغال وتحت الاشجار والادواح فتمتعهُ روائح الصنوبر ويسكرهُ ارج الارض الذكي الممتزج بروائح البطم والغار فيخرج من بيت امهِ وقد ملئ نشاطًا وعزمًا وسرورًا . يخرج اذ ذاك وهو شاعر بانهُ يستحق ان تعاملهُ الطبيعة معاملة مثيل لها بل معاملة احد اعضائها المساوين امام الناموس الشامل الدائم الذي لا يبطل من اجل الاغنياء ولا يلغى من اجل الملوك والامراء . وهكذا خرجت من الوادي بعد ان قضيت فيهِ بضع ساعات . خرجت بعد ان تصفحت فصلاً طويلاً من كتاب أمهرة المنشئين وربة الكتّاب

امين ريحاني